

الغزالي وعالمه الفكري(*)

مراجعة محمد حيدر

بمناسبة ذكره المئوية التاسعة، كان أبو حامد الغزالي محور دراسة واحتفاء في كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس في المغرب. وقد كان لقاءً علمياً تنادى إليه باحثون ومفكرون وأساتذة جامعيون فتناولوا بالبحث والتحليل مختلف جوانب الحياة الفكرية والروحية لأبي حامد الغزالي، وقد تلونت نظراتهم بمختلف الاتجاهات والمسالك الباطنة والظاهرة التي حفلت بها تلك الظاهرة المحيرة. وقد تجلّت في أبحاثهم التيارات النقدية المتباينة ما بين ناقدٍ ومتمهم، ومؤيدٍ وحائرٍ ومنافحٍ.

وتعكس تلك الآراء المتعددة بتعدد الباحثين وباختلاف ميولهم ومدارسهم أهمية الغزالي وحجم شخصيته الفكرية، والمكانة الهامة والبارزة التي له في الحياة الثقافية الإسلامية، ولا تزال آثاره وتأثيراته غنيةً بحضورها وتفاعلها في مختلف مناحي المعرفة. والمداخلات التي جمعت في كتاب (أبو حامد الغزالي، دراسات في فكره ...) إنما تشعّب وتباين نظراتها انطلاقاً من قطبي الزمان والمكان، ومن السلفية إلى المعاصرة. وهذا العرض لمختلف تلك النظرات إنما يختصر الوجوه المتباينة التي تناولت عالم الغزالي الفكري بالشرح والتحليل والاستنتاج وبموازن ذاتية وموضوعية. جاء في بحث علي أومليل تحت عنوان «السلطة السياسية والسلطة العلمية»:

(*) وقائع ندوة علمية عن الغزالي نشرتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1988.

لقد كان توجه الغزالي توجهاً إلهياً خالصاً. يستغرق كل دقائق حياته وكانت له مواقفه المبدئية. لقد كانت قاعدة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» القطب الأعظم في الدين. ولهذا وبفعل المجاهدة توصل الغزالي لأن يتحرر من مDAHنة الخلق وابتعد عن التزلف للسلطان والرياء وسوى ذلك من انحرافات التوجهات الدنيوية. أدرك الغزالي كيف تُستخر أسمى العلوم في خدمة السلطة السياسية. فرأى أن ازدهار بعض العلوم إنما كان الحافز عليه اهتمام أهل السلطة بها ... فأقبل الفقهاء أولاً على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها. ثم جاء اهتمام أهل السلطة بعلم الكلام فظهر من الصدور والأمراء، من يسمع مقالات الناس في العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فانكب الناس على علم الكلام. ويعتبر الغزالي أن علم الكلام الذي أفضى إلى ازدهار «المجالس» حيث كانت تحتدم المناظرات ليصب كل ذلك في النهاية في غاية نيل الخطوة والمنزلة الرفيعة لدى الملك وللتوصل إلى المال والسلطة. وحيال ذلك اللفظ الذي لا ينتهي يضع الغزالي حدّاً يتّسم بالصوفية والاعتزال، ويتّسم بإطلاق شعائر فضيلة الصمت، ولكنه الصمت عندما يصير احتجاجاً. وعلاقة رجل الدين أو الفقيه بالسلطة هو أمر بالغ الأهمية والخطورة والغزالي يضعها في دائرة الضوء حيث يحدّد موقفه كقطب في السلطة العلمية حيال السلطة السياسية.

الغزالي بين فكر القطيعات وسياسة الإقطاع: تطرق الباحث بنسالم حميش إلى نظرة الغزالي الشمولية حيال تحول السلطة إلى قطيعات حيث يستطيع الضباط بفضل تزويج السلطة بقواد مستخّلين بسط هيمنتهم على الحكم المركزي، وأن يخطوا بيسر طرق الامتلاك العقاري وجمع الثروات الهائلة! لقد كان ذلك في العصر السلجوقي أيام الغزالي حيث كانت تعصف بالمجتمع والدولة أزمة سياسية اقتصادية كبرى ... وتلك الأنواء كانت تعصف بالغزالي أيضاً فينطفئ في مواقف مزدوجة «ويهاجم الصوفية كفقيه ويحكم على الفقه بمنظار الصوفي». وقد كانت هناك شروط نفسية خاصة وظروف من السيطرة السنية دفعته إلى السلوك كفقيه ومتكلم سني أشعري، وممارسة الكتابة السجالية للمنافخة عن الخليفة العباسي. ويتابع الباحث حميش، إن ثمة طابعين مؤسسين لمنهج الغزالي:

أ - منهج مثالي يسجل فيه الباحث ملاحظة جوهرية فيشير إلى استماتة الغزالي في مهاجمة الفرق كالفاطميين والقرامطة والخرمية والإسماعيلية والمحزمة. ويصمت حين يتعلق الأمر بهجمة الصليبيين على ديار الإسلام.

وفي مقابل ذلك يسجل له الباحث أفكاراً مدهشة كقوله: «تضييق النصوص من قرآن وسنة عن استيعاب الوقائع ولا يحيط قط ما يتناهى بما لا يتناهى». كما أن الغزالي في موضع آخر يؤكد أن من بين شروط المناظرة الإسلامية أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قرية الوقوع غالباً ...

ب - منهج البين بين: وفحوى هذا المنهج كما يصفه بنسالم حميش أنه منهج لا يصلح للمواجهة في مجتمع ينشب فيه الصراع بين القوى الإيديولوجية الهجومية المتطرفة فوسطية الغزالي السياسية أي وسطيته في حقل العمل السياسي تساوي درجة الصفر في الحياة السياسية الواقعية وخصوصاً عندما تكون هذه الحياة كالتّي عرفها عصر الغزالي قائمة على أزمت التصدع والتصادم و«خلاصة القول أن الغزالي تعبّر ناضج متطور عن ظاهرة الإيديولوجيا السلجوقية الصاعدة المعززة بالبيروقراطية الفارسية ...».

مكونات فكر الغزالي: رأى الأستاذ المعروف محمد عابد الجابري أن مكونات فكر الغزالي هي مكونات الثقافة العربية الإسلامية كلها بمختلف منازعها واتجاهاتها وتياراتها ... ولقد كان ساحة التقت عندها مختلف التيارات الفكرية والإيديولوجية التي عرفها الفكر العربي الإسلامي إلى عهده. وعلى ضوء ذلك يقر الباحث الجابري بصعوبة قراءة الغزالي أو الكتابة عنه. فالقراءة له تتطلب قراءة سابقة لمختلف منازع الفكر العربي الإسلامي وتياراته. والكتابة عنه تتطلب كتابة مماثلة سابقة تنطلق من الغزالي في اتجاه نقطة من نقط البداية المسجلة قبله أو تنتهي إليه انطلاقاً من نقطة من نقط النهاية التي يمكن أن تسجل بعده. وسجل الباحث على أبي حامد ملاحظات ومطالب مثل إيرادته للأحاديث الضعيفة أو الموضوعية في كتابه «الإحياء». كما رأى فيه بعضهم رجلاً يناقض نفسه فيحلّ في موضوع ما يحرمه في موضوع آخر. وأنه كفر الفلاسفة في مسائل ... بينما قال هو نفسه بنفس ما قالوا به في كتب أخرى

ألفها لاحقاً، الأمر الذي دفع ابن العربي الفقيه الأشعري إلى القول: «شيخنا أبو حامد بلغ الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع!».

مناهات التأويل: حسب مؤرخي الفلسفة الإسلامية كمصطفى عبد الرازق والدكتور على سامي النشار فإن فلاسفة الإسلام كالكندي والفارابي وابن رشد وابن سينا وغيرهم لا يمثلون الفكر الإسلامي في شيء وهم أقرب إلى شرح فلسفة اليونان وكلامهم البعيد عن الفكر الإسلامي والقريب منه في آن. ولكل هذه الأسباب فإن الغزالي مؤلف كتاب «المستصفى» الذي يعتبر السند القوي لعلم الأصول ومن ثم للمنهج الإسلامي القديم لا يمكن أن يُعدّ في زمرة الفلاسفة حسب رأي الباحث سعيد بنسعيد .. لكن إذا كان قد دعا إلى خلط المنطق الأرسططاليسي بعلم المسلمين واتخاذ المنهج الوحيد للبحث العلمي فإنه قد فعل ذلك في بداية حياته العلمية وكان كما يقول علي سامي النشار: «عثرته الوحيدة في رحلته الباسقة في هذه الدنيا». ولقد تراجع بعد ذلك عن قوله باعتبار المنطق الأرسطي شرطاً من شروط الاجتهاد وفرض كفاية على المسلمين ... تراجع بعد أن تبين له التعارض بين مبادئ المنطق اليوناني وبين النقل، فلم ير بدأ من القضاء على الأول لينقذ الثاني» ..

وتبتدى كل أصالة الغزالي في هذا الاكتشاف الذي كان في الوقت ذاته بداية فعلية لتأسيس منهج البحث الإسلامي القائم على الاستقراء والتجريب في مقابل المنهج الأرسطي الذي يقوم على البرهان والاستنباط.

الغزالي بين علم الابدان وعلم الأديان: يتبدى الباحث محمد أبو طالب بقول الغزالي في «الإحياء»: «الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا» وانطلاقاً من هذا الاعتقاد يلخص اهتمامات الغزالي في مختلف الفروع: في الأصول والفروع والمقدمات من لغة ونحو وكتابة ثم المتممات لعلم القرآن والاعتناء بعلم الرجال، ثم أجهزة التحصيل في الدماغ والحواس والأعضاء المتحركة والقلب فالعقل والفكر. وبعد ذلك يورد نظرة الغزالي إلى العلم والإدراك فالعلم بالنسبة إليه هو معرفة الشيء على ماهو به من جهة، وعبرة عن وصول الحقيقة إلى القلب من جهة أخرى.

ويرى الباحث محمد أبو طالب أن الغزالي كان مجدداً لأنه حاول معالجة قضايا عصره بإثارة عدد من التساؤلات ووضع حد للمجازفات. وهو يتقدم بعدئذ بمجموعة من المبادئ والأفكار التي يمكن تلخيصها بخمس نقاط: إصلاح التعليم أساس أي وعي ديني لكونه مرتبطاً بإصلاح المجتمع - حركة علمية فكرية - فرض التصوف في المجالين التعليمي والعلمي - أحكام الشريعة وسيلة لضبط الحياة الروحية للفرد - وجوب فهم القرآن فهماً مجازياً.

وفي المجال التربوي يلتقي مفهوم الغزالي مع المفهوم الإغريقي الهادف إلى إعداد الفرد إعداداً شاملاً ومع المفهوم الروماني المبني على التشريع والتثقيف، وهو يمزج بين المفهومين لتخليد الفكر الإسلامي وحضارته.

الغزالي: المنهج وبعض التطبيقات: يقرر الباحث حسن محمد عبد اللطيف الشافعي أن الغزالي مفكر سني عقلي يميل أحياناً إلى موقف الأشاعرة، ويرتضي لنفسه المسلك الصوفي. إذن هو يجمع بين الحالتين حتى لا نقول النقيضين ... بين الاتجاه العقلي وبين الإشراق الصوفي الرؤيوي، وهو يؤمن بالمناهج العقلية المنطقية وصحتها ويزن بها كل معارف عقلية كانت أو شرعية أو حتى روحية. وهو يدعي الأمانة في ذلك ويزعم أنه كفيلاً أن يجمع الخلق على كلمة سواء بفضل تلك الموازين المنطقية لو استجابوا له وأصغوا إليه.

الغزالي والغرب الإسلامي: ووجه الغزالي بعدائية في المغرب الإسلامي، والبدائية كما يقول الباحث محمد المنوني كانت فتوى قاضي قرطبة محمد التغلبي بإحراق كتاب «إحياء علوم الدين» وقد أحرق الكتاب عام 1109 أيام علي بن يوسف بن تاشفين وإجماع الفقهاء وقاضي قرطبة أبي عبد الله ابن حمدين وقد أنفذ كتبه إلى جميع بلاده يأمر بإحراقه حيثما وجد.

وبالمقابل كان ثمة جماعة يدافعون عن الكتاب ويناهضون إحراقه. ويبدو أنهم كانوا جماعة متميزة في العصر المرابطي وقد جهروا بتحريم إحراق «الإحياء». وبين هؤلاء وأولئك كان ثمة فريق ثالث يحدّد المواضع المنتقدة من «الإحياء»

دون التورط في الموافقة على إحراقه وأول أصحاب هذا الاتجاه هو «الطرطوشي» وقد ألف في معارضة «الإحياء» كتاباً مطولاً أشار إليه «الضبي» دون أن يذكر اسمه. أما في أيام «الموحدين» فقد انفرجت الأزمة وزال التحجير على كتب الغزالي ومن بينها «إحياء علوم الدين» وقد كان ذلك أيام المهدي والعاهل الموحد عبد المؤمن بن علي ويتبين من نماذج المهتمين بكتاب «الإحياء» في المغرب الإسلامي أن ذلك الاهتمام بأغلبه قد ظهر في أوساط رجال التصوف.

وفي مجال نقد القاضي ابن العربي لتصوف الغزالي يقول الباحث عبد المجيد الصغير إن المفكر الأندلسي المرابطي المغربي القاضي أبي بكر ابن العربي المعافري يُعد أقدم من تناول بالتحليل والدرس فكر الغزالي واحترار قبل غيره في تفسير الجوانب المتعددة في شخصيته وفي تحديد نسقه الفكري. لقد كان تلميذ الغزالي وقد شهد له هذا بتفوقه وتميزه: «قد أحرز العلم في وقت قصير الأمد. وما خرج من العراق إلا وهو مستقل بنفسه حائز قصب السبق بين أقرانه».

ولربما كان ابن العربي من بين سائر المغاربة والأندلسيين أول من تصدر حملة نقد الغزالي مشافهة قبل أن يتناول ذلك كتابةً وتصنيفاً.

لقد كان الغزالي يرى إلى العلاقة الوثيقة بين سلطة الفقيه والسلطة السياسية ومن ثم «كان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى سياسة الخلق» وفي هذا الاتجاه فإن وشائج التقارب وروابط الوحدة بين ابن العربي والغزالي ليست هينة. بل هي وحدة شاملة سواء على مستوى الأرضية الفكرية النظرية أو أرضية السياسة الواقعية .. وابن العربي كشيخه الغزالي حريص على تأسيس سلطة علمية معتبراً أن أولي الأمر ليسوا هم فقط الأمراء بل العلماء أيضاً. بيد أن ابن العربي ينكفئ ويعمد إلى انتقاد شيخه ونسج الاتهامات والشكوك حوله خاصة في كتابه: «العواصم من القواصم». وقد حرص على إبراز التناقض بين ما سبق وقيده عن شيخه وبين ما أصبح الشيخ يفشيهِ بين مريديه الجدد وعلى رأس هذه المسائل مسألة النبوة. كما أن ابن العربي أخذ على شيخه جريرة اعتناق التصوف «فخرج على الحقيقة، وحاد في أكثر أحواله عن الطريقة».

الغزالي في منظومة الفكر اليهودي: من المفارقات الغريبة أن تترجم مؤلفات الغزالي إلى اللغة العبرية ولبابها القرآن والسنة ومأثورات السلف الصالح. أما المؤلفات التي ترجمت واختارها يهود الغرب الإسلامي ويهود جنوب فرنسا فهي: مقاصد الفلاسفة، تهافت الفلاسفة، ميزان العمل، القسطاس المستقيم. مشكاة الأنوار، باب القياس من معيار العلم، أجوبة أجاب بها الغزالي بعض سائله، وقصيدة شعرية بعنوان قل لآخوان..

أما المقاصد من وراء ترجمة اليهود لهذه المؤلفات فهو استنصار كل لاتجاهه الفلسفي أو الصوفي في الديانة اليهودية، وقد كان في تناقضية الغزالي إشباع لتلك الاتجاهات. أما الموافقة فقد كان الغزالي يمثل عندهم العالم الحكيم الذي جمع بين الشريعة والحجة والبرهان العقليين.

الغزالي والفكر الغربي: يعلن الباحث محمد عزيز الحبابي أنه لا يمكن العثور على طريق يوصل إلى القنوات التاريخية التي وقع من خلالها اتصال الغزالية بالفكر الغربي. ومن المحقق أن «رشدية لاتينية» قد انتشرت بأوروبا ما بين مريدين ومقاومين. أما «غزالية لاتينية» فلم توجد قط. إلا أن ثمة تشابهاً بين منهج الغزالي وبين بعض المفكرين الغربيين أمثال ديكارت وبسكال وكانط.

أما التقاء الغزالي مع ديكارت فمن خلال منهج الشك المشترك، وقد نسب مؤرخو الفلسفة العرب اتجاه ديكارت إلى تأثيره بالغزالي، غير أن الفرق يتجلى في كون منهج ديكارت قد اتخذ شكل منظومة عامة افتقر إليها منهج الغزالي الذي بقي مجرد حدسيات لا تنظيراً لها يدخلها في نسق عام.

أما موضوع الشك عند ديكارت فلقد كان: (الأنا الشاك والله والكون والغير). أما الغزالي فلم يشك في الأنا ولا في الله ولا في الغير ولا في الكون. وقد استهدف شكه تقييم عوالم لترتيب الأفضليات ومن ذلك أن عالم المعقولات أفضل من عالم المحسوسات إن كان بينهما ارتباط.

وأما نقاط التلاقي بين الغزالي وبين كل من بسكال وكانط فهي على التوالي

مسألة الرهان أو الاحتمال، قضية النقائض الأربعة التي عرفها الغزالي ووردت عند «كانط» من بعده ... وهي مسألة خلق العالم من حيث الزمان والمكان، ومشكلة أزلية العالم، ومشكلة أبعديته.

أوهام حول الغزالي: إن أول وهم حول الغزالي كما يلاحظ الأستاذ الكبير عبد الرحمن بدوي هو وهم تأثير هجوم الغزالي على الفلسفة وقد استنتج ذلك بتحقيقه من عدم وجود قائل حقيقي بأن هجوم الغزالي على الفلسفة والفلاسفة في كتابه «تهافت الفلاسفة» قد سدّ ضربة قاضية للفلسفة الإسلامية لم تنهض منها. ويتحقق من ذلك من خلال استعراض آراء أرنست رينان وكارادي فو حول الغزالي، وكذلك أبا البركات البغدادي وأثير الدين الأبهري، ونصير الدين الطوسي، وقطب الدين الرازي ثم ملأ صدره شيرازي ...

الوهم الثاني: شك الغزالي مثل شك ديكارت وهو ينفي وجه الشبه بينهما كما يزعم ليون جوفيه، وما رده بعده «أسين بلاسيوس». والفرق الجوهرى بينهما أن طريق الغزالي للوصول إلى اليقين لم يكن بدليل عقلي، بل بنور قذفه الله في الصدر ... وأما منهج ديكارت للانتقال من الشك إلى اليقين فبخطوات عقلية حذرة تبدأ من أرض راسخة هي «الكوجيتو» لتنتقل منها إلى الحقائق العقلية المستنبطة منها استنباطاً عقلياً محكماً ...

الوهم الثالث: «العلية» عند الغزالي وعند «هيوم» فالرأي عند الغزالي أن السبب هو الله وحده ولا فاعل غيره، وفعله إما مباشرة بنفسه وإما بواسطة الملائكة. وفي كلتا الحالتين لا فاعل إلا الله. أما «هيوم» فلم يلجأ إلى قوة عالية على الكون ... الله أو الملائكة هي التي تفعل. بل انتهى إلى القول بعدم إمكان معرفة من هو فاعل الأحداث ...

الوهم الرابع: الغزالي والمسيحية: فلقد شاع عند الأوروبيين أن الغزالي تأثر بالمسيحية في تصوفه ومبادئه الأخلاقية، ومن أوائل من خاض في هذا الزعم «زويمر» ثم جاء «أسين بلاسيوس» وبعده جاء فنسك. ولكن أشهرهم بلاسيوس لم يتحدث

عن تأثير من الصوفية المسيحية في الغزالي، بل تكلم عن تشابه لفظ المشاهدة عند الغزالي وعند «أفاجريوس النبطي». أما «فنسك» فقد أخطأ خطأً فاحشاً كما يورد بدوي حين قال: «وإن مسألة تأثير الغزالي بهؤلاء الصوفية المسيحيين أمر ثابت مفروغ منه...».

وتدور مداخلة الباحث محمد زنيير حول «النية عند الغزالي» فهي شرط جوهري في سلوك الإنسان وتوجهاته العبادية والأخلاقية وهو يعرفها بأنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً أو آجلاً. فالنية إذن ليست نزوة أو رغبة عابرة بل هي موقف قار في النفس ناشئ عن ميل حقيقي. و«الميل لا يمكن اكتسابه واختراعه بمجرد الإرادة». فلا بد من اقتناع تنشأ عنه إرادة حقيقية.

أما في كتاب «الإحياء» فالغزالي يربط النية بالإخلاص، ويربط الإخلاص بالصدق. ويوضح المعنى المقصود بقوله في «الأربعين في أصول الدين»: النية عبارة عن الميل الجازم الباعث للقدرة. فالذي يغزو قد يكون الباعث له ميل إلى المال، وقد يكون الباعث ميلاً إلى ثواب الآخرة. فإذا «النية عبارة عن الإرادة الباعثة ومعنى إخلاصها تصفية الباعث من الهوى».

وفي نهاية الكتاب ثمة قراءات لنصوص الغزالي في الاستصلاح ونظرية المعرفة (في المنقذ) وفي مستويات اللغة والدلالة بشمولية يمكن الرجوع إليها في آثاره العديدة.